أبو علي الطوسي في "النجف"

جعفر المهاجر

(0)

بُغيتنا في هذا البحث أن نُبيّن الدور التاريخي الحيّ للحسن بن محمد الطوسي (ح:515هـ/1121م) ، الأكثر شُهرةً بكنيته " أبي علي" ، في بعث البحث الفكري الشيعي . بعد أن خمد في آخر معاقله من قبله "بغداد" . وبيان الحوافز والظّرف الذي منحه أن يجترح إحدى أهمّ النهضات الفكرية في التاريخ الثقافي للتشيّع الإمامي .

(1)

بتاريخ شهر المُحرّم 447هـ/1055م اقتحم العسكر التركي السلجوقي دار الخلافة "بغداد" واستولى على السُلطة فيها . وبذلك انتهت الحقبة الهانئة التي تمتّعت فيها المدينة وأهلُها بالسلام والأمن والأمان زمن البويهيين . وخَرِسَ مجملُ الحراك الفكري الذي ازدهر فيها أثناء القرنين السابقين . وباتت "بغداد" التّنوُّع والحراك الفكري الخلاّق ، الذي تمتّعت به كافة المذاهب ، من الماضي الذي هيهات أن يعود .

غداة دخول طغرلبك السلجوقي "بغداد" على رأس عسكره هاجم المنطقة المعمورة بالشيعة منها " الكرخ " هجوماً شاملاً ، رمى إلى تدميرها وتهجير أهلها . بحيث أن أبرز علماء الشيعة في ذلك الأوان محمد بن الحسن الطوسي اضطر إلى اللجوء مؤقتاً إلى مشهد الإمامين الجوادين عليهما السلام في الجانب الغربي من المدينة . فنُهبت داره وأُخذ ما فيها ، ومن جملتها مكتبته الكبيرة . وتتالت الفتن إلى درجة افتعال حريق هائل نال المدينة كلّها ، "الكرخ" وغيره . إلى غير ذلك من الفظائع المهولة ، ممّا هو كثيرٌ معروف .

في ظلّ ذلك المناخ الفتنوي التدميري ، الباعث على اليأس ، غادر الشيخ الطوسي "بغداد" نهائياً، واتجه إلى القرية التي كانت معروفة يومذاك بـ " مشهد علي " ، وستُعرَفُ فيما بعد بـ

"النجف" . وفيها أمضى ما بقي له من العمر ، في دارٍ مجاورٍ للحرم العلوي ، إلى أن توفي ودُفن فيها ، لتُجعل من بعدُ مسجداً ومزاراً وما تزال .

(2)

والحقيقةُ أنّ المصيبة بما ارتكبه السلاجقة في دار الخلافة قد نالت جميع المذاهب المُتمثّلة فيها دون تمييز . لكنّ ما نال الشيعة منها كان الأقسى والأفدح ، لأنه قضى قضاءً مُبرَماً على القاعدة المكانيّة الوحيدة التي انحصر فيها البحث الشيعي أثناء القرنين الماضيين ، بعد أن كان قد خمد قبلُ في "قم" حيث وُلد ونشأ ثم انتشر في نطاقها ، بحيث غطّى كلّ المنطقة المعروفة باسم " ماوراء النهر" .

في "بغداد" عمل الكلاميّ المؤسّس هشام بن الحكم (ح:187هـ/802م) . وفيها برُز أبناءُ البيت النوبختي وما صنّفوه من كُتُبٍ ورسائل ، ما كان له فعل التأصيل للفكر العقدي الشيعي . وفيها نشر الصّدوقان ، محمد بن يعقوب الكُليني (ت:329هـ/950م) ومحمد بن علي القُمّي (ت:381هـ/991م) ، ثمرة أعمالهما النقديّة على النصوص الشيعيّة الأصليّة . وفيها توالى على العمل ، باتجاه إنتاج النصّ الفقاهتي، خمسةٌ من أعاظم الفقهاء المؤسسين : ، محمد بن الجُنيد الأسكافي (ت . قُبيل 277هـ/987م) ، والحسن بن أبي عقيل العمّاني(ح:النصف الأول من القرن4هـ / 10م) ، والشيخ المفيد (ت :413هـ ./ 1022م) ، والسيّد المرتضى (ت : 436هـ / 1044 م) ، وأخيراً خاتمتهم محمد بن الحسن الطوسي (ت:460هـ / 1067م) الذي قُـدّر له أن يشهد الفاجعة الكبري ويكتوي بنارها ، بالتدمير التامّ الهمجي لساحة " بغداد " الرّائعة ، التي تواصلت فيها المذاهب كما لم تتواصل في أي مكانٍ وزمان غيرها . ولو انه تواصل واستمرّ لربما كان له من النتائج الحسنة على المسألة المذهبيّة في الإسلام ما يفوق أخصب خيال المُتفائلين . وهـذه ملاحظةٌ تستحقّ أن تكون إشـكاليّةَ بحـثٍ برأسه ، مهمته أن يقـرأها في السياسة والفكر. . . الخ. ، نرجو أن نُوفّق له يوماً ما .

المُهمُّ الآن أنّه بالنتيجة بات ذلك التاريخُ المجيد من الماضي ، وبات البحثُ الشيعي في وضع المُشـرّد ، لا مكان له يؤويه ولا سقف يحميه . واستمرّ هذا الوضعُ بعدُ مدة قرنٍ من الزمان تقريباً . أي إلى أن بدأت نتائج أعمال بطل هذه اللحظة ، وبطلُ بحثنا أيضاً ، تظهرُ تباعاً . حيث

لم يكُن يخطر في بال أوسع الناس خيالاً أن تظهر . وفي هذا دليلٌ على قُدرة التّشيّع الهائلة على استخراج إنجازٍ تاريخيٍّ من قلب الكارثة . ولكم في تاريخ التّشيّع من أمثال لمَن يُحسن القراءة .

(3)

على مستوى البحث والباحث ، أنبتتْ واقعةُ استيلاء السلاجقة على السُلطة في " بغداد " وماترتّب عليه ، تأريخيَن مُزيفيَن :

ــ الأول : ارتكبه المؤرخون السُلطويّون ، الذين من دأبهم أن يُرضوا السُلطة الفعليّة ، فيغضّوا الطَّرفَ عن آثام أربابها مهما تكُن ، لحساب تاريخٍ كاذبٍ يُزوّقونه لها من خيالهم . والخبيرُ العارفُ بالمكتبة التاريخيّة الرسميّةَ عندنا يستطيع أن يسوق ما لا يُحصى من الشواهد على ذلك . ومنه ، فيما يخصُّ بحثنا ، أنّها لم ترَ من أفاعيل السلاجقة في "بغداد" ، على فظاعتها ، إلا أنّهم قد أنجدوا الخلافة من محنتها السّابقة المَزعومة على أيدي البويهيين ، حيث أوصلوا الخلفاء ومنصب الخلافة إلى هوانٍ ما بعده هوان . ويا لبُعد هذه الفذلكة السخيفة عن الحقيقة . والحقيقة أنّ منصب الخلافة لم يهُن بأحدٍ من الطارئين على الصورة السياسيّة لـ "العراق" هوانَه بالأتراك من سلاجقةٍ وغيرهم . لكن ما من شيءٍ قادرٌ على قلْب الحقيقة كالعصبيّة المذهبيّة .

ــ الثاني : الزّعم بأن الشيخ الطوسي هو الذي أنجد التشيّع من محنته بتدمير " بغداد " ، بأن أسّس وأطلق الحوزة العلميّة في " النجف " . وبذلك سدّ بسرعةٍ قياسيّةٍ الفراغ الكبير الذي تركه انهيار سابقتها في " بغداد " .

ذلك زعمٌ ليس له أدنى أساس من الصحّة . وليس وراءَه إلا أنّ صاحبه المجهول قد لاحظ أن الشيخ قد نزل البقعة التي آلَ أمرها إلى أن سُمّيت " النجف " وأقام فيها زمناً غير طويل . وأنّ هذه آلَ أمرُها أيضاً فيما بعد إلى أن غدت حاضرةً علميّة . فارتجل من عند نفسه علاقةً سببيّةً بين الاثنتين : نزول الشيخ ، وظُهور الحوزة في " النجف " . دون أن يأخذ بعين الاعتبار بالحدّ الأدنى التناسُب الزمني بين الواقعتين ، ولا الحالة التي كانت عليها " النجف " يوم نزلها ، ولا الأُخرى التي كان عليها الشيخ يومذاك في سنّه العالية ووحدته المُوحشة . ولم يقُلْ لنا واقعةً واحدةً ممّا يُسجّله الناس عادةً من ضروب العلاقة بين الأُستاذين وتلاميذهم .

والحقيقةُ أنّ إسم " النجف " لم يكن حيث هو اليوم . بل كان علَماً على الهضبة المرتفعةً عن مستوى الأرض من حولها (ومن هنا أتى اسمها) ، يتوسّطها ضريحُ الإمام عليه السلام . أمّا المكان الذي نزله الشيخ فقد كان اسمه على الألسُن وفي كافة المصادر المُعاصرة "مشهد علي" ، لأنه لم يكُن فيه ما يستحقّ تمييزه باسم إلا الضريح المُطهّر. من حوله بضع بيوتٍ طينيّةٍ ، ينزلها مؤقتاً بعضُ زُوّارٌ ومجاورون . والظاهر أنّ أوّل مَن قطن أحدَ تلك البيوت بنحوٍ دائم هو الشيخ الطوسي . وأنّه ببركة وجوده بدأ الناسُ يفدون إلى المكان ، قاصدين ، بالإضافة إلى زيارة الضريح ، لقاء شيخهم في وحدته القاسية . ذلك أقصى ما يُمكنُ قوله على مساهمة الشيخ في التأسيس للحوزة القادمة ، بالإضافة ، طبعاً ، إلى اصطحابه ابنه وحيده أبا علي إليها . ثم ليُرابط هذا فيها بعد وفاة أبيه ، ليضعَ من بعد الأساسَ للبناء الكبير الذي سيملأُ الفراغ الشّاغر. لكن ليس في "مشهد علي" / " النجف " . بل في بقعةٍ غير بعيدة ، لم تكُن قبلُ شيئاً مذكورا .

لذلك فإنّنا ، بعد هذا التمهيد الذي رمينا منه إلى توجيه سعينا البحثي الاتجاهَ الصحيح ، سنُحوّلُ الكلام إلى غاية البحث : التعريف بشخص أبي علي ، مقدّمةً لبيان أعماله ذات البُعد التاريخي الحيّ في إعادة الحياة إلى العمل الفكري الشيعي ، بعد أن خمد في " بغداد " . لينطلق بفضل ريادته الفذّة إلى آفاقٍ جديدةٍ ، مانزال ننعُم ببركتها وعميم خيرها حتى اليوم .

(4)

إنّ الباحثَ ، إذ يعملُ على تركيب سيرةٍ وافيةٍ لأبي علي ، يُفاجَأُ ليس فقط بنُدرة المعلومات عليه في المصادر الشيعيّة ، بل وأنّها أيضاً تأتي في سيرته المزعومة على ذكر ما لا يثبتُ لعمل النّاقد المُدقّق .

فمن الأوّل أنّها ، على الرُّغم من أعماله التاريخيّة الباهرة ، ليست تأتي على ذكر العنصر الأساسي في سيرته وسيرة أيّ إنسان مهما يكُنْ محلُّه . أعني تاريخَ ولادته ووفاته على الأقلّ . ولولا أنّ تلميذه عماد الدين محمد بن أبي القاسم علي الطبري(ح:553هـ/1158م) نقل عنه في كتابه السّائر *بشارة المصطفى لشيعة المرتضى* بضعَ روايات ، أرّخ سماعَها بالسنة 515هـ/1121م ، التي نفهم منها أنّ أبا علي كان سنة ذاك على قيد الحياة ، ــ لَما كان في يدنا أيّ تاريخٍ له ، إلا على نحو التخمين ، وما قد يُستفادُ من المُلابسات على نحو التقريب .

ومن الثاني أنّ المؤرخ وكاتب السّيرة مُنتجب الدين علي بن بابويه الرّازي (ح: 584 هـ/ 1188 م) يقول ، في الترجمة القصيرة التي علّقها له في كتابه *الفهرست* / برقم 71 ، أنّه " **قرأ**

[يعني أبا علي] **على والده جميع تصانيفه**" . ثم نُقلتْ هذه الجملة عنه في كافة كُتُب الرجال والسيرة التي ترجمت له من بعد منتجب الدين ، دون تدقيق .

ذلك كلامٌ أقلُّ ما يُقالُ عليه أنّه لايثبتُ للنقد .

من الثابت المؤكّد أنّ الشيخ الطوسي توفي سنة 460هـ . وأنّ ابنه أبا علي كان على قيد الحياة سنة 515هـ ، أي بعد خمسٍ وخمسين سنة من وفاة أبيه . أي أنّه كان سنةَ ذاك في سنّ العمل ، بشهادة الروايات العديدة التي سمعها منه تلميذه عماد الدين . وأي أنّ أبا علي عاش بعد ذلك التاريخ عُمراً غير قصير على الأرجح .

وعليه نسألُ : في أيّ عمرٍ بدأ دراسته المزعومة على أبيه ؟ وكم من السنين أمضى في قراءة "**جميع تصانيفه**" عليه ، وهي البالغة 47 مُصنّفاً ؟! خصوصاً إن نحن أخذنا بعين الاعتبار أنّ منها ماهو من بضع مجلّداتٍ كبار كـ *المبسوط* في الفقه وكـ *التبيان* في التفسير وكـ *التهذيب* و *الاستبصار* في الحديث .... الخ.

لذلك فإنّنا نظنُّ قويّاً أن هذه المعلومة قد ارتجلها مُنتجبُ الدين من عند نفسه ارتجالاً ، آخذاً بعين الاعتبار فقط أنّ الأب ، بمقدار ما لدى منتجب الدين عنه من معلومات فيما يبدو ، هو الأستاذ الوحيد المُمكن لابنه فيما اسمه " النجف " عنده يومذاك .

هذا اشتلاقٌ صريحٌ في أدب البحث . مصحوبٌ بميلٍ غير خفيٍّ إلى المُبالغة والتزويق. هو الذي دعانا إلى ذلك التدقيق التاريخي ، فأودى إلى كشف ما في نصّه من آفة .

الأمرُ والمقدار الوحيد المؤكّد من دراسته على أبيه هو مايذكره الباحثُ المُدقّق الذي لا يكلُّ ولا يستريح ، عبد الله أفندي الإصفهاني (ح:1106هـ/ 1694م) ، في كتابه *رياض العلماء وحياض الفضلاء:* 334/1 ، حيث ذكر أنّ أباعلي " **كان شريكاً في الدرس مع الشيخ أبي الوفاء عبد الجبار بن عبد الله بن علي الرّازي ، والشيخ أبي محمد الحسن بن الحسين بن بابويه القمّي ، والشيخ أبي عبد الله محمد بن هبة الله الورّاق الطرابلسي عند قراءة كتاب التبيان على والده**" . رأى الإصفهاني ذلك بخط الوالد على ظهر نسخةٍ قديمةٍ من كتابه *التبيان*.

لكنّ من المؤكد أنّ تلك القراءة، التي ضمّت ، بالإضافة إلى أبي علي ، ثلاثةً آخرين. أحدهم قادمٌ من " الرّيّ " والثاني من " قم " والثالث من " طرابلس " الشّاميّة ، كانت في "بغداد" وليس في " النجف " /"مشهد علي". الأمرُ الذي نفهم منه أنها حصلت قبل ارتحال الشيخ إليها سنة 451 هـ/1059م ، أي يوم كان ابنه في أوائل سنيّ الطلب.

الحقيقة التي خفيت على منتجب الدين ، هي أنّ الأُستاذ الأساسي ، فيما يبدو ، لأبي علي هو حمزة بن عبد العزيز الديلمي ، الأكثر شُهرةً بلقبه الفارسي : سلّار (ت : 463هـ /1070م) . وهو من كبار فقهاء مدرسة " بغداد " في العقود الأخيرة من عمر نهضتها . قرأ فيها على الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت:413هـ / 1022م) ، ثم من بعده على تلميذه

السيّد المرتضى (ت:463 هـ/ 1044م) وتخرّج به . وكان من خواصّه ، ينوب عنه في حلقة درسه . على أننا لسنا نعرفُ أين درس عليه ، بسبب غُموض سيرة الاثنين أثناء الفترة البالغة القسوة التي اضطربا فيها كلاهما، ممّا بات القارئُ على خُبرٍ به . لكنّنا نعرفُ أنّ سلاّراً توفي ودُفن في " تبريز" ، بعد أن خرج من " بغداد " ، كأكثر الفقهاء الشيعة آنذاك . لذلك فإنّنا قد نجِدُ من بين تلاميذه الكُثُر مَن تتلمذوا له في " بغداد " ، إلى آخرين منهم في المنطقة الفارسيّة . وما ندري إلى أيّ الفريقَين ننسبُ قراءةَ صاحبَنا أبا علي عليه . لكنّه لايخلو أن يكون بين أحدهما . مع ترجيح " بغداد " لأسبابٍ واضحة .

ثمّةَ ، فيما وصلنا من سيرة أبي علي ، ملاحظةٌ تُثيرُ عندنا اليومَ أقصى العجب والإعجاب . هي أنّ المصادر غير الشيعيّة منها أغنى من مصادرنا بكثير بالمعلومات عليه . تلك ظاهرةٌ شاذّةٌ شُذوذاً بالغاً ، لسنا نعرفُ لها شبيهاً بمقدار ما نعرف . لذلك فإنّ علينا أن نقِفَ على خبيئها أو بعضِه . خصوصاً وأنها تكشفَ لنا بعضَ ما خفي ممّا كان يجري في أيامه وعلى يده في " مشهد علي " .

فمن ذلك وأوفره مادّةً ما نجده لدى المؤرخ خليل بن أيبك الصفدي (697ـ764هـ/ 1297ـ 1362م) في كتابه *الوافي بالوفيات* :12 / 251 ، حيث علّق له ترجمةً مختصرةً ، لكنّها ثمينةً بالنّظر لفرادتها . وصفه فيها بـ "**شيخُ الرّافضة وعالِمُهُم**" . ثم عقّبَ على هذا العنوان السخيف بالقول :"**رحلت إليه طوائفُ الشيعة إليه إلى العراق ، وحملوا عنه . وكان ورعاً عالِماً مُتألّهاً كثيرَ الزُّهد . وبين عينيه كرُكبة العنز من أثر السجود ، وكان يسترها** " .

النّصُّ غنيٌّ غنىً مدهشاً ، لسنا نستكثره على الصفدي ، الذي نعرفُ جيّداً خبرتَه وسعيَه ودأبَه . لكنه ، باعتبار أنّه عاش بعد أبي علي بقرنيَن تقريباً ، يثيرُ لدى المُتأمّل سؤالاً مُلحّاً : من أين أتى بهذه الصورة الرُّؤيويّة ، التي تدلُّ على رؤيةٍ ومُعاينة من الرّاوي الأول لشخص المُترجَم له " **بين عينيه كرُكبة العنز**" ؟ . ومن أين عرفَ بالخصوص رحيلَ " **طوائف الشيعة" إليه وحَمْلهم عنه** " ؟ الأمرُ الذي لسنا نجدُ أدنى إشارةٍ إليه في مصادرنا . وأتانا هو وحدَهُ بها ، على بُعده الزماني ــ المكاني .

يدلُّ ذلك على أنّه قد استقى معلوماته من مصادر ، لم يذكر هو منها إلا السُمعاني بأنّه " **أثنى عليه** " ، يعني في كتابه *الانساب* ولا ريب . لكنّنا بالبحث لم نجد ذكراً للرجل في هذا الكتاب . فلعلّ العبارةَ حُذفت بفعل ناسخٍ مُتمذهبٍ تمذهُباً عنيفاً . وليس ذلك بالأمر النّادر . ثم أنّه ينقل عن العماد الطبري ، الذي نعرفه من أبرز تلاميذ أبي علي في " مشهد عليّ " ، قولَه : " **لو جازت الصلاة على غير النبي وغير الإمام لصلّيتُ عليه** ". وذلك كلامٌ لم يُنقَل ولا شبهةُ في أيّ مصدرٍ غيره ، بمقدار ما بحثنا ونقّبنا .

فمن ذلك إجمالاً نعرفُ أن الصفدي قد أخذ ما أثبته في نصّه من مصادر شيعيّةٍ مُعاصرةٍ لأبي علي . عرفه مصنفوها معرفةً شخصيّةً ، وعرفوا أعمالَه معرفةً جيّدةً مُباشرة . لكنّ تلك النصوص فُقدت بعدُ من أسف .

ابن حجر العسقلاني (ت:852هـ/1448م) يوردُ له في كتابه *لسان الميزان* : 2 / 250 ترجمةً شوهاء . لم يصحُّ عندنا منها سوى قوله عليه : " **فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي** " . لذلك ضربنا عمّا خلا ذلك منها صفحاً . كيلا نصرفَ الوقتَ والجُهدَ بنقدها في غير النافع .

جَماعُ ما حرّرناه من سيرة الرجل يدلّ على أنّه قد تمتّع بصيتٍ طيّبٍ عند الكافّة ، كِفاء سيرته الشخصيّة النقيّة ، وكِفاء أدائه العملانيّ التاريخي . وذلك امتيازٌ لم يحظَ بمثله أيُّ فقيهٍ شيعيّ في ذلك الزمان الصعب ولا في غيره. لكنّ ماحرّرناه ، مع أننا استوعينا فيه كلَّ ماوقعنا عليه في المصادر التي بين أيدينا ، لم يقُلْ لنا بأيّ نحوٍ كيف وأنّى تأتّى له أن يعملَ ما لخّصه الصفدي بعبارته الحافلة المُوحية : " **رحلت إليه طوائفُ الشيعة إليه إلى العراق ، وحملوا عنه** " ؟ ! . مهما قد يبدو في كلمة " **طوائف** " خاصة من مُبالغة .

ذلك ما سنحاول الجواب عنه في الفقرة التالية .

(5)

ممّا هو بغنىً عن البيان ، أنّ الحافز الأوّل والأساس لأعمال أبي علي في " مشهد علي" ، وأيضاً الحافز الأول والأساس لتلاميذه ، إذ رحلوا إليه وحملوا عنه ، إنّما هو فيما جرى على " بغداد " ، فأدّى إلى خسارة دورها الطليعي الفذّ يومذاك في الحركة العلميّة العالقة في دار الإسلام ، كما أدّى إلى خسارة التشيّع البيئة الوحيدة التي كان يزدهر ويُنتج فيها . ولولا ذلك لما تأتّى لأبي علي إلا أن يكون أحد علماء المدينة التي تعجُّ بأمثاله . ولاتجه طلبة العلم إليها ليقرأوا على أحد علمائها والتمتّع بجوّها الفكري الغنيّ البهيج . ولربما قرأ أحدهم عليه . وبالتأكيد لَما كان لأحدٍ أن ينفر للتفقّه في الدين إلى ذلك القفْر الموحش الذي يفتقر إلى أدنى شروط الحياة الماديّة والمعنويّة . ولبقي "مشهد علي" مُجرّد مشهد مقصود مؤقتاً من االزُّوّار والمُجاورين ، إلى أن يقضي الله له أمراً .

الحافز الثاني والأساسي أيضاً هو تمصير مدينة " الحلّة " غير بعيدٍ عن " مشهد علي ". ونحن سنقول طبعاً كيف أثّرت على قراره إلى درجة أن باتت حافزاً له للعمل . لكنّ علينا قبلُ أن نُبيّن للقارئ معنى ومغزى تمصير المدينة . بدون بيانه سيكون فهمُ دورها في أعمال أبي علي قاصراً عن الحقيقة والواقع .

سنة 494هـ/1101م أتمّ الأمير صدقة بن منصور المزيدي بناء مدينة " الحلّة " في المنطقة الرّطبة/المُستنقعيّة التي تراكمت أثناء القرون المتطاولة في " العراق " الأدنى ، ممّا يحمله الدّفق المُتوالي لنهر الفرات من طمي . وكانت قبلُ قريةً صغيرةً اسمها " الجامعين " . وفي ذلك

مؤشّرٌ إلى الجهد الكبير الذي اقتضاه استصلاح الأرض كيما تصلح وتتسع لبناء مدينة . بالإضافة إلى أنها المدينة الوحيدة التي جرى تمصيرها في " العراق " بعد الفتح بقرارٍ وجُهدٍ سُكّاني شعبي من السُكان المحليين ، والذين انضافوا إليهم من الأكراد الجاوانيين . خلافاً للمدن الخمس الأُخــريات : " الكوفة " " البصرة " " بغداد " " واسط " " سامرا "، وهي التي مُصّرت جميعها بقرارٍ سُلطويٍّ عالٍ .

تلك المُواصفات التي تمثّلت في المدينة الجديدة ، بالإضافة إلى السياسة الرشيدة المُسالمة ذات الرِّفق لأُمرائها المزيديين ، كان لها تأثيرٌ حضاريٌّ ثقافيٌّ هائل . السُكان المحليّون ، الذين كانوا نصارى ، وليسوا مسيحيين بالتأكيد ، تحوّلوا دون كبير جُهدٍ إلى الإسلام الغالب . والأكراد الجاوانيين الذين كانوا شافعيّة تحوّلوا أيضاً إلى التشيُّع . أما بنو أسد ، الذين كانوا يملأون الفجاج ، من " الكوفة " وعلى طول مجرى فرع نهر الفرات بعدها ، فقد كانوا شيعةً بالأصالة . وهكذا تشكّلت الهُويّة الثقافيّة ، وإن شئت قلت المذهبيّة ، للمدينة ، فباتت شيعيّةً شبه خالصة . مع وجودٍ ضئيلٍ لبعض الصابئة المندائيين .

الخطوة التالية التي يجب أن تكون المُتوقّعة ، هي أن يتجّه ذلك المُركّب البشري بجامعته إلى العمل على التسامي بثقافته الخاصّة الجامعة . شأنَ التشيّع الإمامي دائماً حيث يكون على حالةٍ كافيةٍ من الاستقرار السياسي / الإداري والطمأنينة ، في كل ما نعرفه من تاريخه (للقارئ العارف أن يُقارن هنا أُنموذج " الحلّة " بأُنموذجي " حلب " و " قم ") . مع ضرورة أن نأخذَ بعين الاعتبار في هذا السياق ، أنّ " الحلّة " سرعان ما تحوّلت إلى إمارة ، تتمتّع بحالةٍ من الاستقلال الإداري قِبالَ السُلطة المركزيّة في " بغداد" . لها عسكرها المستعد للدفاع عنها وعن استقلالها . في قلبه الأكراد الجاوانيّون وأُمراؤهم ، إلى حضورٍ لبني خفاجة وأسد فيه عند الضرورة . ولم يكن ينقصها إلا الغطاء الفكري الذي يُمكن أن يمنحها مِسحةً من الشرعيّة . في مقابل بقايا الخلافة المُتهالكة في " بغداد " ، بما تُعانيه من حالة الفوضى العسكريّة السّائدة ، التي يُديرها الأُمراءُ العسكريون من بني سلجوق . وما من ريبٍ في أنّ أُمراءها من بني مزيد كانوا يُدركون حاجتها الماسّة لذلك ، كيما تستكمل عناصر البقاء . وهم الذين أثبتوا حتى الآن كفاءتهم السياسيّة العالية ، فساروا بخطواتٍ مدروسة باتجاه إنشاء مدينةٍ ــ إمارة . والفضلُ في ذلك يرجع إلى أصلهم ، الذي يضربُ إلى العرب المدينيين المُسمّون بـ (النّبط) ، أهل الحجر . في مقابل الأعراب البُداة ، أهل الوبر . كما أثبتنا في مكانٍ آخر ممّا سبق لنا أن كتبناه .

هنا أتى دور " مشهد علي " وشيخه الصّامد فيه أبو علي الحسن بن محمد الطوسي ، بوصفه الفرصة الوحيدة للمدينة الجديدة المُتطلّعة إلى الاشتغال على ذاتها وذاتيّتها . " مشهد علي " بما فيه من جاذبيّة وبما له من قدسيّة . وأبو علي بما هو عليه من حميد الصفات ، وبما عنده من علم . بالإضافة لِما لبيته من أصالةٍ وحضور .

بعد هذا البيان لِما لتمصير " الحلّة " من معنى ومغزى ، ذَوَي علاقةٍ بالدور التاريخي لبطل هذه الدراسة ، حقّ علينا أن ندخلَ ذروةَ البحث . حيث سنعمل على الجواب عن السؤال التالي : كيف استطاع أبو علي وحده في " مشهد علي " ، أن ينفخ الروح في البحث الفكري الشيعي الإمامي بعد خموده ، بحيث آلَ إلى أن اجترح في إمارة " الحلّة " الناشئة إحدى أروع النهضات الفكريّة في التاريخ الثقافي ليس للتشيّع وحده ، بل للإسلام إجمالاً .

(6)

من الغني عن البيان أنّ التركيبة البشريّة للمدينة ، كما عرفناها ، كانت أعجزَ من أن تُبادر ، أو أن تُساهم على الأقلّ ، في استنهاض حالةٍ فكريّة ، تتناسب مع طموحها المشروع ، وقد ترفُد هُويتها الثقافيّة الناشئة ، كما عرفناها أيضاً . لافتقار كافة عناصرها إلى التجربة في هذا النطاق . وهذا واضحٌ ، لا يحتاجُ إلا إلى بعض تأمُّلٍ من القارئ الحصيف ، الذى استوعى ما قد قُلناه على تركيبتها قبل قليل . فكأن الأمر كان يحتاج إلى أُعجوبة ، في ظلّ حالة الفراغ التامّ ، التي كان يُعاني منها عالَم التشيّع يومذاك ، على أثر وبسبب انهياره في " بغداد " .

(الأُعجوبة) أتت من قريةٍ صغيرةٍ بجنب " الحلّة " إسمها " سُورى " ولا يزال .

كانت " سُورى " أشبه ما يكون بالحاضرة الفكريّة والسُكّانيّة لمجموعةٍ من بقايا الأُمم السابقة ، التي عمرت " العراق " في سالف أيامه البعيدة . عُمّارها سُمّوا أو تسمّوا بـ (السُّوريان) نسبةً إليها ، ثم خُفّف الاسم بالاستعمال إلى (السُّريان) كما هو اليوم . فلمّا انتشرت النصرانيّة بعد السيّد المسيح عليه السلام ، تنصّروا فيمَن تنصّر من حولهم . لكنّهم بالتأكيد لم ينضمّوا فيما بعد إلى التحوّل الكبير ، الذي حصل بعد القرن الثالث للميلاد ، من النصرانيّة إلى المسيحيّة ، وعنوانها الأساسي الذي وهبها اسمها : تأليه السيّد المسيح . بل ظلّوا على إيمانهم بنبوّته . والفضل في هذا الثبات ، فيما يبدو، يرجع إلى عُزلتهم في منطقتهم المُستنقعيّة ، التي حَمَتهم وحَمَت إيمانهم . ثم أنهم عندما مُصّرت " الحلّة " والتأم شملُ سكانها كانوا ممّن ضمّته ، فتحوّلوا دون كبير جُهد إلى الإسلام . لأنّ التّحوّل كان نقلةً صغيرةً من نُبوّةٍ إلى تاليتها . لكنّهم ، في طورهم الجديد ، احتفظوا ، طبعاً ، بتراثهم الثقافي ــ الحضاري الباهر الموروث عن أسلافهم . وهو الذي سيقود منذ الآن خُطاهُم ، وضمناً بعض خُطى " الحلّة " في مستقبل الأيام الآتيّة . خصوصاً في عملها العظيم على تطوير الفقه الإمامي ، بالنحو الذي هو عليه حتى اليوم .

بتاريخٍ غير معروفٍ بالضبط ، خرج من " سُورى " رجلٌ من أهلها اسمه (هبة الله بن رطبة السُّوراوي). فيمّم وجهه شطر " مشهد علي" ، حيث بدأ الدراسة على شيخه المُستوحد هناك. والذي بين أيدينا من معلوماتٍ على تلك الأيام الفاصلة يُفهمُ منه ، على نحو الترجيح ، أنّه كان أول مَن تتلمذ له هناك ، وآنسه في مكانه المُوحش من الناس .

يحلو لنا هنا أن نتصوّر أن أبا علي كان بالغ الغبطة بتلميذه المُبكّر، وهو الذي أثبت له بالمعمول أن ثباته حيث هو ، مع أنّه كان أقربَ إلى أنّه كان حُكم ضرورة ، لن يكون عبثاً . خصوصاً وأنّ التلميذ قادمٌ من بيئةٍ مُتقدّمةٌ فكريّاً وثقافياً بما لا يُقاس على كلّ أبناء العناصر البشريّة التي التأمت في المدينة ــ الإمارة .

ما الذي حفز هبة الله ، مع ماكان عليه من سنٍّ عالية كما نُرجّح ، للنّفر إلى " مشهد علي " ، على ماكان عليه المشهد من حالةٍ بائسةٍ ، بالقياس إلى " سُورى " أو " الحلّة " ؟ وهل كان لعقله السرياني الغني مطالبه في تخصيب معارفه بما يتناسب مع استبصاره بالإسلام ؟ أم هل إنّ أمير " الحلّة " يومذاك ، أيّـاً كان ، هو الذي شجّع أو أقنع أو اقترح على هبة الله ما فعل . لِما للأمير من مصلحةٍ أكيدةٍ في البعث المعنوي لإمارته ، كيما يكون بموازاة وبمستوى بعثها المادي والسياسي ، وأن ما من أحدٍ نعرفه من أهل " الحلّة " يصلح للمبادرة إلى المُهمّة ، إلا أن يكون شخصاً بمواصفات هبة الله ؟

أسئلةٌ نطرحها ، وإن نكُن لا نملك عنها جواباً ، لأن السؤال وجيه بنفسه ، وإنّ الجواب عنه كامنٌ في ذينك الاحتمالين .

والظاهرُ أنّ مكوث هبة الله في " مشهد علي " لم يطُل ، وأنّه توفي غير بعيد (لذلك رجّحنا قبل قليل أنّه عندما ارتحل إليه كان في سنٍّ عالية) . وإن ذُكر في مصدرٍ واحد أن الفقيه الجليل محمد بن إدريس قـد قرأ عليه هـناك . ما يــدلُّ ، إن صحّ ، على أنّ هبة الله قـد مكـث في " مشهد علي " طويلاً ، بحيث استوفى من الدراسة حظاً خوّله أن يُدرّس مع أُستاذه أبي علي ، أو من بعده . لكنّ المُقارنة الزّمنية لا تُساعد على قبول الخبر , فضلاً عن أنّه لو كان صحيحاً لشاع ذكره في المصادر الكثيرة التي عُنيت بسيرة ابن إدريس ، بعد أن غدا من أبرز علماء " الحلّة " في فترة صعودها وأوفاهم ذكرا .

مهما يكُن فقد كانت بادرةُ هبة الله الطليعةَ لوفود عددٍ إضافيّ من الطلاب ، الذين تحلّقوا حول قطب الزمان أبي علي يقرأون عليه . هكذا بدأت الهيئة والحضور الجديدين لـ " مشهد علي " تتـشكّل . ثم ليكون لها في المستقبل غير البعيد ما يُبدّل المصائر ، في بقعةٍ لم يكُن يخطر ببال بشر أن تأُولَ بفضله إلى ما آلت إليه .

والظاهر أنّ الحسن والحسين ابنا هبة الله كانا من أوائل مَن تبع خُطاه إلى " مشهد علي " وإلى القراءة على أبي علي . لكنّ هذين ، خلافاً لأبيهما ، ورداه في سنّ الفتوّة أو الشباب ، واستوفيا الدراسة فيه على شيخه . الأمر الذي سيمنحهما ، خصوصاً الثاني منهما ، أن يغدوا من معارف علماء الزمان ، وأن يُـربـّيا أعداداً من التلاميذ . بل ونقول إنّ للحسين خصوصاً يعود جـزءٌ كبيرٌ من الفضل في منح " الحلّة " صفة وفعل المركز العلمي ، الذي أعاد الروح إلى الآلة الفكريّة الشيعيّة ، بعد وبسبب كارثتها بـ " بغداد " . وسنقول كيف بعد قليل .

من هـذه البداية المتواضعة ، انطلق ما يُمكن أن نُسميه بحقّ ، حوزةً علميّة حقـيقية في " مشهد علي " . أنجبت أثناء عمرها القصير ثلاثةً وعشرين فقيهاً من مختلف المستويات . سنذكرهم بأسمائهم ، حفاظاً على حقهم الرّيادي .

1 ــ هبة الله بن رطبة السوراوي .
2 ــ الحسن بن هبة الله السوراوي .
3 ــ الحسين بن هبة الله السوراوي .
4 ــ محمد السوراوي .
5 ــ عماد الدين محمد بن أبي القاسم الطبري .
6 ــ الحسين بن أحمد بن طحال المقدادي .
7 ــ بدر الدين بن سيف بن بدر العربي .
8 ـ أردشير بن أبي الماجد الكابلي .
9 ـ إسماعيل بن محمود الجبلي .
10 ــ ظفر بن الداعي بن ظفر الحمداني القزويني .
11 ـ أبو النجم الشجري .
12 ـ عبد الجليل بن عيسى بن عبد الوهاب الرازي .
13 ـ محمد بن علي بن عبد الصمد النيسابوري .
14 ـ علي بن علي بن عبد الصمد النيسابوري .
15 ــ الداعي بن علي الحسيني السروي .
16 ـ فضل الله بن علي بن الحسين القاساني .
17 ــ أبو الفتوح أحمد بن علي الرازي .
18 ـ محمد بن الحسن الشوهاني .
19 ـ محمد بن الفضل بن الحسن الطبرسي .
20 ـ محمد بن علي بن الحسن الحلبي .
21 ــ مسعود بن علي الصوابي .
22 ــ علي بن شهرآشوب المازندراني .
23 ــ إلياس بن هشام الحائري .

أولُ ما نلاحظه من هذا الإحصاء ، أنّ أكثر الحوزويين قادمون من المنطقة الثقافيّة الفارسيّة :

إثنان من كلٍّ من " الرّي " و " طبرستان " و " نيسابور " .

واحدٌ من كلٍّ من" قزوين " و" مازندران " و" قاسان " و" كابل " و" سيروان " و"شوهان " .

المجموع اثنا عشر من أصل ثلاثة وعشرين .

سبعةٌ عراقيون . أربعةٌ منهم من أُصولٍ سريانيّة ، هم الموصفون بـ " السوراوي " نسبة إلى بلدهم " سُورى " .

واحدٌ حلبيّ .

الثلاثة الباقون لم نظفر بعد البحث بما يدلُّ على أُصولهم البلديّة ـ الأقواميّة . هم : الشجري ، الصوابي ، الجبلي . ومن البيّن للقارئ الحصيف أنّ خفاء شؤونهم يدلّ على ضعف حضورهم أثناء حياتهم .

لكننا نُلاحظ باستغرابٍ شديدٍ ضَعفَ الحضور العراقي العربي في هذه الحركة المباركة . مع أنّ بلدهم هو الذي اكتوى بنار بني سلجوق . ومع أنّه الأقرب مكاناً من حيث كان يجري العمل حثيثاً على رأب الصّدع ، ليستمرّ عقوداً من السنين ، ربما بلغت نصف قرنٍ من الزمان .

ومع ذلك فإنّ " العراق " لم يتمثّل إلا بثلاثةٍ من العرب ، هم الحسين بن أحمد بن طحال المقدادي ، وبدر الدين بن سيف بن بدر العربي ، وإلياس بن هشام الحائري . وفي المُقابل إثنا عشر من المنطقة الفارسيّة ، وأربعة من السريان . من هؤلاء السريان الحسين بن الرّائد هبة الله بن رطبة السوراوي (ت : 579هـ / 1183 م) ، الذي سيحمل بجدارة عبْء ريادة نقْل العمل الإعدادي ، الذي كان عالقاً في " مشهد علي " ، إلى " الحلّة " ، وبذلك أسّس لمجدها الآتي .

مصادرنا تُطنب في بيان فضل الحسين . فتصفه بأنه " **كان من أكابر مشايخ الشيعة ، فقيهاً عارفاً بالأُصول . روى عن أبي علي بن الشيخ الطوسي . وقرأ الكُتُب ، ورحل إلى خراسان ، ولقي كبار العلماء وصنّف واشتغل بالحلّة** " (الخوئي : معجم رجال الحديث ، برقم 3709 وموسوعة طبقات الفقهاء : 6 / 94) . والنّصُّ حافل بالالتباسات ، التي تستدعي مراجعته مُراجعةً نقديّة . لكنّ ما يهمنا منه الآن أنّه هو الذي أطلق الحركة النهضويّة في " الحلّة " بأن كان أوّل مَن اشتغل فيها ، يعني بالذين قرأوا وتخرّجوا عليه .

في هذا النطاق يُذكَرُ من تلاميذه في " الحلّة " : ابنه هبة الله ، ومحمد بن أبي البركات بن إبراهيم الصنعاني ، ورشيد الدين العبداد بن جعفر بن محمد الديلمي ، ويحيى بن محمد بن يحيى السوراوي ، ومحمد بن جعفر بن علي المشهدي ، وعربي بن مسافر العبادي ، وموسى بن جعفر ابن طاوس السوراوي ، وعلي بن فرج .

فهذه ثمانية أسماء لتلاميذ الحسين في " الحلّة " ، تدلُّ بعديد أصحابها وتنوّع أوطانهم على أنّ المدينة قد بدأت تغدو مقصداً للطامحين إلى الحصول على درجةٍ علميّة ، فيقصدونها من أماكن بعيدة . ولتكُن هذه الملاحظة دعوةٌ لقراءة كتابنا القادم إن شاء الله على " الحلّة " ونهضتها .